ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

نقد التمييز بين العقلانية والأخلاقية في مشروع طه عبد الرحمن

A Critique of the Distinction between Rationality and Morality in Taha Abderrahmane's Project

د. عبد المجيد الجوزي

قسم الفلسفة ـ كلية العلوم الانسانية ـ جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله

تاريخ الاستلام: 25 / 12 /2025 تاريخ القبول: 24 / 05 /2025 تاريخ النشر: 2026/06/09

Abstract:

This article critically examines Taha Abderrahmane's distinction between rationality and morality via his "Ta'thil" method. Applying Ta'thil to "'aql" (intellect) uncovers its original role as a moral regulator, rendering rationality inseparable from morality in Islamic thought. Yet Abderrahmane introduces "abstracted rationality" and "morality-oriented rationality," committing the "separation of what cannot be separated" he critiques in others. This leads to denigrating rationality despite its authentic, elevated status in Islam.

Keywords: Rationality; Morality; Separating the Indivisible; Manḥaj al-Taʿthīl; Inferior View.

المؤلف المرسل: د. عبد المجيد الجوزي

البريد الالكتروني: abdelmadjid.eldjouzi@univ-alger2.dz

-الملخص:

هذا المقال يتناول بالنقد "التمييز" الذي يقيمه طه عبد الرحمن بين العقلانية والأخلاقية داخل مشروعه الفلسفي، مع التركيز على منهجه المعروف باسم «التأثيل». ويبيّن المقال أنّ تطبيق هذا المنهج على لفظ «العقل» يكشف أنّ معناه الأصيل يقوم على وظيفة ضابطة أخلاقية، تجعل العقلانية غير قابلة للفصل عن الأخلاقية. ومع ذلك، نحت طه مصطلحي «العقلانية المجرّدة» و«العقلانية المسدّدة بالأخلاقية»، فوقع في «فصل ما لا يُفصل» الذي انتقده لدى آخرين، وأفضى ذلك إلى نظرة دونية للعقلانية رغم أصالتها في الفكر الإسلامي.

-الكلمات المفتاحية: العقلانية؛ الأخلاقية؛ فصل ما لا يفصل؛ منهج التأثيل؛ النظرة الدونية.

1. مقدمة:

يشكّل سؤال الحداثة محورًا أساسيًا في الفكر العربي الحديث والمعاصر، لما يطرحه من قضايا معرفية وما يثيره من تساؤلات متعلقة بالهوية والأصالة والعلاقة بين الأنا والآخر، بالإضافة إلى الحرية الأخلاقية وترابط العقلانية بالدين وغيرها من التساؤلات.

ومن بين المفكرين الذين عنوا بالحداثة نقدًا للأنموذج الحضاري الغربي منها وتأسيسًا لنمط آخر هي الحداثة الإسلامية؛ الدكتور طه عبد الرحمن المفكر المغربي الذي صاغ ـ على مدى سنوات من التدريس ومؤلفات عدة ودراسات ومناقشات فكرية في المغرب وخارجه ـ مشروعًا فلسفيًا يجمع بين "التشقيق اللغوي" و"التحليل المنطقي"، مرتكزًا على التراث الإسلامي ومتأثرًا بنفحة صوفية.

وقبل الشروع في القراءة النقدية لأحد جوانب فكر طه عبد الرحمن، لا بد من الإشارة إلى أهم إنجازاته الفكرية تقديرًا لجهوده. إذ يعمل أستاذًا للمنطق وفقه اللغة

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

بجامعة محمد الخامس في المغرب ويُعد ظاهرة فكرية متميزة أثارت نقاشات مستفيضة بين مؤيد ومعارض. نظمت حول أفكاره مؤتمرات ولقاءات[1]، وهو صاحب مشروع فكري فلسفي منفتح على العالم الإسلامي، ويحتل "مبدأ التعارف"[2] بين الشعوب مكانة محورية في هذا المشروع.

أما إنتاجه الفكري، فينعكس في مؤلفاته الكثيرة التي تعتمد بشكل أساسي على أسلوب الكتابة الاستدلالية دون اللجوء إلى السرد أو العرض التقريري، مما يجعل بنيتها شبيهة بتصميم هندسي متماسك حيث يستلزم كل جزء الإلمام بالسابق عليه[3]. وعلى عكس النظريات التجزيئية التي سادت في التعامل مع التراث ـ كما هو الحال لدى الجابري وأركون ونصر حامد أبو زيد وعبد الله العروي وغيره ـ يتبنى عبد الرحمن رؤية تكاملية تضع التراث وحدة متداخلة ومترابطة. ويرى التراث تعبيرًا عن مجموعة من المضامين والوسائل التي تشكل هوية الفرد المسلم ضمن قيم قومية وإنسانية سواء كانت حية أم ميتة[4].

ومن مؤلفات الدكتور طه عبد الرحمن التي تهمنا في هذا المقال؛ كتابان: الأول: كتاب "سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية" الصادر في عام 2000، والثاني: كتاب "روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية" الصادر عام 2006. ففي الكتاب الأول يناهض الحداثة الغربية بينما يضع في الثاني أساسيات الحداثة الإسلامية.

وهو في تحليله للعقلانية الغربية؛ يفاضل بين نمطين من العقلانية:

ـ عقلانية مجردة من الأخلاق منفصلة عنها.

ـ عقلانية مؤطرة بالأخلاق مدعومة بها.

ويرى أن العقلانية الأولى يتشاطرها الإنسان مع الحيوان.

أما الثانية فهي التي يتميز بها الإنسان دون غيره.

وبناءً على ذلك، يشير إلى خطأ الحداثيين الذين اعتبروا العقلانية الأولى صفة إنسانية فريدة دون اعتبار للأخلاقية. فالإنسان، وفق رؤيته، يعرّف بأخلاقيته قبل عقلانيته.

وهذا التباين بين هاتين العقلانيتين هو ما ألزمنا بطرح هذا الإشكال:

هل وقع طه عبد الرحمن في مأزق "فصل ما لا يُفصل" إذ فرّق بين العقلانية والأخلاقية؟ وهل يكون وهو المولع بنقد كل من "فصل ما لا يُفصل" قد وقع في ذات الأمر الذي عابه على مفكري الغرب ومن سار على دربهم من مفكري العرب؟ وإذا صح ذلك؛ فإنه حينئذ يكون واقعًا في تناقض داخلي، وفي عدم التزام بمنهجه "التأثيل"، ناهيك عن رؤيته الدونية للعقلانية التي ليست حكرًا على الغرب وحده.

وقبل استعراض واختبار صحة الفرضية المتعلقة بعدم اتساق منهج عبد الرحمن، وصحّة فرضية وقوعه فيما انتقده على الآخرين؛ قبل ذلك؛ رأينا استعراض مفهومي "الحداثة" و"العقلانية"، ثم عرض موجز لتحليل طه عبد الرحمن للعقلانية الحداثية. ومن ثم نقدم مراجعة نقدية لتحليل طه عبد الرحمن للعقلانية الحداثية. وهذا المبحث هو محور هذا المقال.

2. مفهوم الحداثة :

الحداثة في اللغة مشتقة من الفعل "حدث"، وتعني الجديد مقابل القديم، حيث يشير مصطلح "الحدوث" إلى وجود أمر لم يكن موجودًا من قبل. يُقال: حدث أمر أي وقع، و"الحديث" هو كل ما هو جديد من الأشياء[5]، وعليه فلكل قديم جديد وكل جديد سيصبح يومًا قديمًا، فكل مرحلة لاحقة من مراحل تقدم البشرية تعتبر "حديثة" بالنسبة إلى مرحلة سابقة.

أما اصطلاحًا؛ فاخترنا تعريفًا يوضح زمان ومكان نشأة الحداثة، وما تدعو إليه على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي: فـ"هي ظاهرة غربية انطلقت من أوروبا مع الثورة الفرنسية (1789م)، وعنت التغيير في النظام السياسي من النظام

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

الملكي إلى الديمقراطي .. واعتماد الليبرالية نظامًا اقتصاديًا، والمساواة بين الجنسين على الصعيد الاجتماعي، وإلزامية التعليم للأطفال .. وتذويب الطوائف والأديان في بوتقة مدنية علمانية واحدة"[6].

ويرى عبد الوهاب المسيري أن الحداثة وإن كانت مرتبطة بفكر حركة التنوير التي جعلت الإنسان هو محور الكون وسيده وأنه لا يحتاج إلا إلى عقله في بلوغ المعرفة وفي التميز بين الصواب والخطأ وتسخير الطبيعة لصالحه؛ إلا أنها في النسق الغربي ارتبطت بانفصالها عن القيم. فقد أشار إلى أن الحداثة ليست مجرد توظيف العقل والعلم والتكنولوجيا وحسب، وإنما ترتبط باستخدام هذه الأدوات بعيدًا عن القيم الإنسانية أو الأخلاقية[7].

أما محمد سبيلا فقد وصف الحداثة بأنها حركة انفصال واتصال في آن واحد، إذ تقطع مع الماضي والتراث، ولكن لا لنبذه وإنما لاحتوائه وتلوينه وإدماجه في مخاضها المتجدد، مما يجعل الحداثة ظاهرة مزدوجة تجمع بين القطعية والاستمرارية[8].

و"الحداثة الغربية" عادة ما يتناولها النقاد في ركائزها الرئيسية الثلاث: الإنسان والعلم والعقل، أو نقد مرتكزاتها الثلاثة: العقلانية، الذاتية، الحرية. وإذ لا يمكن بحث هذه المحاور كلها في هذا المقام؛ اخترنا أهمها وهي "العقلانية" المستمدة من العقل، لتعلقها في آنٍ واحد بالركيزتين الأخريين: الإنسان والعلم، من جهة؛ ومن جهة أخرى لارتباط فكرة الحداثة بالعقلنة ارتباطًا وثيقًا[9]، على حد تعبير عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر "آلان توران" Alain Touraine في كتابه: "نقد الحداثة". فما العقلانية؟

3. مفهوم العقلانية :

لفهم العقلانية، ينبغي أولًا توضيح ما المقصود بـ"العقل" الذي اشتُقت منه. فالعقل يُقصد به مجموعة الإدراكات البديهية التي لا تحتاج إلى دليل أو برهان لإثباتها، مثل قانون العلية وقانون عدم التناقض. هذه القوانين الأساسية تشكل الأساس الذي تُبنى عليه عملية البرهان والمعرفة النظرية عمومًا[10]. وتبعًا لذلك، فإن العقلانية هي توجه فكري يقوم على إعطاء الأولوية للعقل؛ بحيث تكون أحكامه واستنتاجاته هي المعيار الأساسي لتكوين المعرفة في مختلف المجالات.

4 ـ نقد طه عبد الرحمن للعقلانية الحداثية:

إن نقد الحداثة لا يبتعد عادة ـ كما ذكرنا ـ عن نقد أركانها أو نقد مرتكزاتها. وسنكتفي هنا بذكر نقد طه عبد الرحمن للعقلانية الحداثية. وهو في كتابه "سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية"؛ يبني نقده للحداثة الغربية على أساس ومنطلق الأخلاق.

ويمكن تلخيص رؤية طه عبد الرحمن في هذا الكتاب من خلال محورين رئيسيين تم تناولهما في الفصلين الأول والثاني: المحور الأخلاقي ومحور العقلانية. فناقش المؤلف في الفصل الأول علاقة الأخلاق بالدين وأيهما تابع للآخر، واعترض مزاعم استقلال الأخلاق عن الدين.

أما في الفصل الثاني والذي يعنينا؛ فقد تعرض لفكرة "العقلانية"، حيث يرى أن الأخلاق تشكّل الأساس الجوهري الذي تقوم عليه إنسانية الإنسان، وأن أي عقلانية لا تستمد مشروعيتها من هذا الأساس القيمي تفقد خصوصيتها الإنسانية. ومن هذا المنطلق، يميز بين نمط من العقلانية منزوع الصلة بالأخلاق، ونمط آخر تندمج فيه الوظيفة العقلية بالبُعد القيمي، ويجعل هذا الأخير وحده جديرًا بأن يُنسب إلى الإنسان بوصفه كائنًا أخلاقيًا[11].

"العقلانية" ـ إذن ـ في فكر طه عبد الرحمن نوعان:

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

أ. العقلانية المجرّدة من الأخلاقية، والتي يرى أنها مشتركة بين الإنسان والبهيمة؛ إذ ترتكز فقط على قدرات التفكير دون ارتباط بأي قيم أخلاقية.

ب ـ العقلانية المُسدّدة بالأخلاقية، التي يرى أنها تميّز الإنسان بحق، وهي عقلانية تندمج فيها القيم الأخلاقية مع القدرات العقلية، لتُكسب الإنسان خصوصيته وتفرّده.

ويرى طه عبد الرحمن أن العقلانية الحداثية التي تبناها المفكرون المحدثون ارتكزت على النوع الأول، أي العقلانية المجردة من القيم الأخلاقية[12].

ومن هنا جاء نقده لهم، لأنهم ـ في رأيه ـ أسقطوا العنصر الجوهري الذي يجعل الإنسان إنساناً حقيقياً، ألا وهو الأخلاقية. فهو يعتبر أن إنسانية الإنسان تكمن في ارتباط العقلانية بالأخلاق وليس في استقلال العقل عن هذا الجانب القيمي.

وهذا التمييز بين نوعي العقلانية في الطرح "الطاهوي" هو الذي فرض علينا طرح الإشكال السابق؛ وفرض علينا تقديم هذه القراءة النقدية لما كتبه المؤلف عن العقلانية الحداثية.

5 ـ قراءة نقدية في نقد طه عبد الرحمن للعقلانية الحداثية:

يمكن إيجاز هذه القراءة النقدية في النقاط الآتية:

5 -1- الفصل بين "العقلانية" و"الأخلاقية" هو من نوع "فصل ما لا ينفصل":

طه عبد الرحمن ميّز بين "الأخلاقية" و"العقلانية" في كتابه "سؤال الأخلاق"، واتضح هذا التمييز منذ بدء الكتاب، فقد عنون مقدّمته بهذا العنوان: "أيهما أخصّ بالإنسان: العقلانية أو الأخلاقية؟"، ثمّ أعلن عن هذا التباين بين المصطلحين بكون "العقلانية" عاجزة عن كونها الفيصل بين الانسانية والبهيمية، وأن الحدّ الفاصل بينهما موجود في شيء يسميه "طه" باسم "الأخلاقية" التي تجعل الانسان متميزا عن الحيوان[13].

واحتاج "المؤلف" بعد هذا التمييز أن يخترع مصطلحين هما: "العقلانية المجرّدة عن الأخلاقية" و"العقلانية المسدّدة بالأخلاقية".

وهدفنا في هذا المقال؛ هو إثبات أن هذا الفصل بين المصطلحين المذكورين هو من نوع "فصل ما لا ينفصل"، أو من نوع "تجزئة المجموع" أو "فصل المتصل"، وأن هذا الاصطلاح الطاهوي: "العقلانية المجرّدة من الأخلاقية" قد أوقع صاحبه في ذات الأمر الذي أنكره على مفكري الغرب ومن سار في أثرهم من مفكري العرب، فهو مولع بنقد فصل ما لا ينفصل، فهو يرى أن الحداثة قد اتخذت "آلية فصل المتصل" وسيلة في إقامة مشروعها الدنيوي؛ فقد فصلت العلم عن الدين وتلك هي العِلمانية، وفصلت السياسة عن الدين وتلك هي العَلمانية، وفصلت الأخلاق عن الدين وتلك هي الدهرانية، وتعدد هذه الفصول يسميه طه عبد الرحمن اسم الدنيانية[14].

ومع ذلك، فإنّ مقتضى الإنصاف المنهجي يقتضي وضع هذا التمييز الذي يقيمه طه عبد الرحمن بين "العقلانية المجردة" و"العقلانية المسدّدة بالأخلاقية" في سياقه الفلسفي العام، إذ لا يبدو أنّ قصده هو الحطّ من قيمة العقل في ذاته، بقدر ما يتوجّه نقده إلى نمط مخصوص من العقلانية الذي تبلور في الحداثة الغربية، والذي يفصل بين المعرفة والقيم ويحوّل العقل إلى أداة أداتية محضة. ومن هذا المنطلق، يمكن فهم هذا التمييز بوصفه محاولة لإعادة ربط العقل بأفقه القيمي، لا لإلغائه أو التقليل من شأنه. غير أنّ هذا التوجّه، على الرغم من وجاهة منطلقاته النقدية، يظل محلّ نظر، من حيث إنّ الصيغة التي يُقدَّم بها قد تفضي إلى نتائج إشكالية، من قبيل إضعاف الاستقلال المعرفي للعقل أو فتح المجال لتأويلات تُقزِّم من دوره في تحديد ماهية الإنسان. ومن ثمّ، فإنّ الإشكال لا يكمن في مقصد طه عبد الرحمن فحسب؛ بقدر ما يكمن في الصياغة المفهومية التي اعتمدها، وما يترتب عليها من لوازم نظرية تحتاج إلى مزيد من التدقيق.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

وتبعاً لهذا "الفصل بين ما لا ينفصل" الذي وقع فيه مفكرنا المغربي نسجل بعض النتائج الفكرية التي نؤاخذه عليها، منها هاتين الملاحظتين:

- ابتعاده عن منهجه الذي يسميه: "التأثيل" وعدم الالتزام به.

- ووقوعه في "نظرة دونية" إلى "العقلانية" بالرغم من أنها ليست حكرا على الحداثة الغربية التي انتقدها.

وهذا إيضاح لما جاء هنا مجملاً:

5 -2- الحياد عن منهج: "التأثيل":

يُعرّف طه عبد الرحمن منهج "التأثيل" بأنه محاولة إعادة المصطلح الفلسفي المعاصر لجذوره اللغوية ورصيده العملي التاريخي لتوسيع أفق مفهوم هذا المصطلح[15]. ومع ذلك، فإنه في تعامله مع مصطلح "العقلانية" وطرحه لمفهوم "العقلانية المجرّدة عن الأخلاقية"، يبدو أنه لم يلتزم بهذا المنهج. ولو التزم بمنهجه المسمى "التأثيل"؛ لسعى إلى وصل مدلول "العقلانية" الاصطلاحي بأسباب مدلوله اللغوي، ولَوَجد عندئذ أن "العقل" الذي اشتقت منه "العقلانية" يُفيد معاني كثيرة من حيث اللغة، لكن هذه المعاني تصب كلها في مصب واحد تجعل العقل ضابطا أخلاقيا.

وبيان ذلك؛ أن العقل الذي اشتقت منه العقلانية، يعني من حيث اللغة: "الحبس"، و"التقييد"، و"الإلزام"، و"الإمساك"، و"القيد". إنه مشتق من "العِقال": وهو الرباط الذي تُربط به الشاة أو الناقة، وفي الحديث: "اعقلها وتوكّل"[16].

ويذكر الجاحظ سبب تسمية "العقل" عقلا؛ فيربطه بجملة من الأفعال الدالة على **الضبط والمنع**[17]. فالعقل، هو الذي "**يَزِمُّ**" اللسان فيمنعه من الانفلات، و"**يَخْطِمُه**" أي يلجمه بالاحتياط والاحتراز[18]، و"**يَشْكُلُه**" أي يشدّه ويقيّده كما تُشدّ قوائم البعير بالشكال أي الحبل، و" **يَرْبُثُه** " أي يحبس اندفاعه ويصرفه عن موارد

الخطأ[19] وهذه الأفعال، على اختلاف صيغها، تلتقي جميعها في معنى واحد هو أن العقل وظيفة تقويم أخلاقي، غايتها كبح الهوى ومنع التورّط في ما يخلّ بالاستقامة الإنسانية.

وورد في "لسان العرب" أن "العاقل، الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أُخذ من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حُبس ومُنع الكلام"[20]. ومن مشتقات لفظة "عقل": "العِقال" و"العقيلة" و"المعقل". يقول الجاحظ عن الإنسان الذي يبوح بسر عسُر عليه كتمانه: "كأنه أُنشط من عِقال"[21]، ويقول عن أزهد الناس أنه من كان آمنهم على نفائس الأموال و"عقائل" النساء[22]، وقال عن القرآن هو "معقل يمنع من الهلكة والبوار"[23].

فالعقل-حسب التعريف اللغوي-هو القوة القامعة الحابسة المقيدة المانعة، وهو قوة في الإنسان تمنعه من التورط في المهالك، وتحبسه عن العدول عن سواء السبيل، كأن "العقل" رباط يُمسك به العاقل فيجره عن الأمور القبيحة إلى الهدى، أو أنها حصن يحميه من المهالك والردى، ولذا يسمي الجاحظ العقل "القامع للهوى"[24]. فالعقل إذن ضابط أخلاقي.

وهنا نضع المصطلح الطاهوي ونعني به "العقلانية المجرّدة عن الأخلاقية" موضع تساؤل؛ فماذا يبقى من العقلانية إذا جُرّدت من الأخلاقية، أي ماذا يبقى من "العقل" إذا انتزعنا منه صفة الحبس والمنع والتحصين والقمع والتقييد؟! لا شيء. وهذا يعني أن "طه عبد الرحمن" قد وقع ـ من جهة ـ في مأزق "فصل ما لا ينفصل" الذي عاب من يقع فيه من المفكرين، ومن جهة أخرى قد حاد عن منهج "التأثيل" الذي دعا إليه ولم يلتزم به في تعامله مع مصطلح "العقلانية" فلم يصل مدلوله الاصطلاحي أو المفهومي بأسباب مدلوله اللغوي، ولو طبق منهج "التأثيل" لأفضى به إلى المعنى الأصيل الذي وُضع من أجله لفظ "عقل" وهو معنى "المنع" و"الحبس" و"الإمساك" وغير ذلك مما

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

يجعل وظيفة "العقل" تنحصر في منع الانسان من التردي والضلال فيستقيم سلوكه.

ولهذا كله جُعل العقل مناط التكليف في الاسلام، فقد رُفع التكليف عن البهائم وعن الأطفال حتى يبلغوا وعن المجانين حتى يعقلوا وعن النائمين حتى يستيقظوا. وفي القرآن الكريم ورد ذكر تحسر أهل السعير على عدم أخذهم بأحد المنقذين من العذاب: إما "السمع" أي الوحي وإما "العقل"، قال تعالى: "**وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**"[25]. قال "الزمخشري" في تفسير هذه الآية: "لوكنا نسمع الانذار سماع طالبين للحق أي نعقله عقل متأملين، وقيل إنما جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل"[26]. فكلاهما: الوحي والعقل يهدي إلى النجاة. وهذا يعني أن السيئات والمعاصي التي تصدر عن الإنسان إنما تأتي في لحظة طمس العقل. "وقال بعض السلف ما عصى اللهَ أحدٌ حتي يغيب عقله .. فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية"[27]. فالعقل في حدّ ذاته ضابط أخلاقي.

ولنا في فلاسفة الغرب أنفسهم ما يدعم أن العقل في حدّ ذاته ضابط أخلاقي؛ فهذا "كانط" قد جعل العقل عقلين: عقل نظري، وعقل عملي، وهذا الأخير هو المُدرِكُ لِما ينبغي فعلُه وإيقاعُه أو تركُه. أي العقل الأخلاقي.

ولذا فلا معنى لهذا المصطلح الطاهوي: العقلانية المجرّدة من الأخلاقية.

ولو طبق طه عبد الرحمن منهجه "التأثيل" على المصطلح: "العقل" وبالتالي "العقلانية"؛ ما نحت هذا المصطلح، الذي لم يُبق للعقل شيئًا من وظائفه الأخلاقية بفصله العقلانية عن الأخلاقية. ولما احتاج إلى نحت مصطلح آخر هو: العقلانية المسدّدة بالأخلاقية، ليقوم العقل بوظيفته الأخلاقية. ولكنه حاد وعدل عن منهجه "التأثيل" فوقع في مأزق "فصل ما لا ينفصل".

5 -3- النظرة الدونية للعقل والعقلانية:

حديث طه عبد الرحمن عن العقلانية هو حديث المنقص من قيمتها؛ حتى جعلها صفة يشترك فيها الحيوان مع الانسان. كما سبق أن ذكرنا عند حديثه عن العقلانية المجرّدة. وفي قوله أيضا: "ما المانع من أن نسمي القوة الادراكية الخاصة بالبهائم .. عقلا"[28]. ولم يكتف طه عبد الرحمن بهذه النظرة الدونية إلى "العقل"، بل جعله مصدر إضرار، حيث يفضي بالإنسان الغربي إلى "نقيض مقصوده، ألم يكن يريد أن يزداد به استقامة - كما يقول - فإذا هو يزداد اعوجاجا؟"[29].

وتحدّث عن التباين في المواقف الأخلاقية[30] إلى الحدّ الذي يجعل النظر الفلسفي في الأخلاق يبدو وكأنه فوضى فكرية لا حدود لها، ثم ينسب هذا التباين في المواقف المتناقضة إلى العقلانية، ثم يستنتج أن العقلانية ذاتها لا تخلو من طابع اللاعقلانية[31].

وقبل عرض النظرة النقدية لهذا التمييز الذي يقيمه طه عبد الرحمن بين "العقلانية المجردة" و"العقلانية المسددة بالأخلاقية"؛ نشير أولا إلى السياق الذي وضع فيه المفكر المغربي هذا التقسيم حيث كان يراد به – في سياق مشروعه – نقد العقلانية الأداتية التي تفصل المعرفة عن القيم، إلا أنه يمكن أن يُفهم من هذا التمييز بين العقلانيتين؛ أنّه يفضي، من حيث النتيجة، إلى تقليل من القيمة المعرفية للعقلانية المجردة؛ خاصة عندما يذهب إلى حدّ اعتبار هذا النمط من العقلانية مشتركًا بين الإنسان والحيوان. كما يترتب على ذلك ضمنيًا؛ نزع الخصوصية الإنسانية عن العقل من حيث هو أداة إدراك، أو على الأقل إضعاف منزلته بوصفه محدِّدًا جوهريًا للإنسانية.

ومع ذلك، ينبغي التنبيه إلى أنّ هذا التوجّه لا يصرّح صراحةً بالحطّ من قيمة العقل، بقدر ما يعكس إعادة ترتيب للمراتب بين العقل والأخلاق، بحيث تُجعل "الأخلاقية" أساسًا مميزًا للإنسان. غير أنّ هذا الترتيب نفسه يظل قابلاً للتأويل في

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

ضوء خلفيات فكرية أوسع، نذكر من بينها خلفيتين اثنتين: النزعة الصوفية، والنزاع الإيديولوجي.

الأولى: النزعة الصوفية التي تميل إلى نقد التعويل المطلق على العقل، فقد يُفسّر على ضوئها– جزئيًا – هذا الموقف الذي يُفضي إلى تقليص دور العقلانية المجردة، وهو ما يفتح المجال للتساؤل عما إذا كانت هذه النزعة الصوفية قد أسهمت . ولو جزئيا . في توجيه هذا التصور للعقلانية؟

الثانية: النزاع الأيديولوجي والفكري مع محمد عابد الجابري، الذي مثّل النقيض الكامل لطه عبد الرحمن في كثير من النقاط: ففي الوقت الذي دعا الجابري إلى إحياء "الروح الرشدية" واستلهامها لتكون جزءًا حاضرًا من فكرنا وتطلعاتنا[32]، رفض طه عبد الرحمن الحاجة إلى الرشدية، مؤكّدًا أن نهضة الأمة الإسلامية لن تكون عبر فكر ابن رشد[33]. وحين ألّف الجابري كتابه الشهير "نقد العقل العربي" بمراحله المختلفة، التي قدمت تقسيمًا ثلاثيًا للعقل (العقل البرهاني، العقل العرفاني، والعقل البياني)، ألّف طه عبد الرحمن كتاب "العمل الديني وتجديد العقل"، مقدّمًا أيضًا تقسيمًا ثلاثيًا للعقل (العقل المؤيد، العقل المجرد، والعقل المسدد)، ولكن بمنهجية تخالف تمامًا ترتيب الجابري للقيم والأهمية. على الجانب الآخر، كان الجدل بينهما أيضًا حاضرًا حول مسألة التراث. ففي حين كتب الجابري "نحن والتراث" و"التراث والحداثة"، وضع طه عبد الرحمن كتابه "تجديد المنهج في تقويم التراث"، حيث انتقد منهج الجابري بشدة واعتبر تقويمه للتراث قاصرًا وغير مدرك لآلياته[34].

وقد أُبرزت تفاصيل الصراع الأيديولوجي بين الرجلين بشكل موسع في كتاب وصف صاحبه مشروع طه عبد الرحمن الفكري بأنه انعكاس مقلوب لمشروع الجابري[35]. ولا شكّ أنه ليس من الموضوعية في شيء أن يلجأ مفكر إلى النقد مدفوعا بدوافع إيديولوجية.

6. الخاتمة:

ومما سبق ذكره نصل إلى أن "الحداثة الغربية" ليست سيئة كلها لاسيما ما كان منها من ركائز تشترك فيها البشرية جمعاء، وأهم هذه الركائز "العقلانية" التي ليست حكراً على الغرب وحده، بل سبقت إلى الإشادة بها الحضارة الاسلامية من خلال حركة "المعتزلة" أولاً ثم من خلال "الرشدية" التي تأثر بها الفكر الغربي.

وحاولنا في هذا المقال الربط بين "العقلانية" و"الأخلاقية" مستندين إلى المعنى اللغوي الاشتقاقي لكلمة "عقل" التي اشتقت منها "العقلانية"، مع العلم أن هذا المنهج هو المنهج الذي يدعوه طه عبد الرحمن باسم "التأثيل"، والذي حاد عنه في مقام تحامله على "العقلانية" مدفوعا من جهة بما امتاز به من نفحة صوفية، ومن جهة أخرى بأسباب إيديولوجية جعلته يقف في مقابل مفكر عربي آخر من وطنه كان همه في مشروعه النهضوي الاشادة بالرشدية والعقلانية؛ ذلك هو محمد عابد الجابري.

7. قائمة المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، 1981م).
3. ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط.1، 1996م.
4. آلان تورين، نقد الحداثة، تر. أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (د.ط)، 1997م.
5. الترمذي (محمد بن عيسى)، سنن الترمذي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط.1، (د.ت).

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

6. الجابري (محمد عابد)، نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي بيروت، ط.6، 1993م.
7. الجاحظ (أبو عثمان بحر بن عمرو)، رسائل الجاحظ، الرسائل الكلامية، تقديم وتبويب وشرح الدكتور علي أبي ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط.1، 1987م.
8. الجاحظ (أبو عثمان بحر بن عمرو)، رسائل الجاحظ، شرح وتقديم وتعليق عبد أ. مهنّا، دار الحداثة، بيروت، ط.1، 1988م.
9. الحري (عبد النبي). طه عبد الرحمن ومحمد عابد الجابري: صراع المشروعين على أرض الحكمة الرشدية، منشورات الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط.1، 2014م.
10. الزمخشري (محمود بن عمر)، تفسير الكشاف، تحقيق محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، ط.2، 1977م.
11. الكاظمي (ماجد)، الرؤية الفلسفية نقد وتحليل: دراسة استدلالية معمقة في نقد الفكر الفلسفي، باقيات للطباعة والنشر، قم - أيران، (د.ط)، 1958م.
12. المسيري (عبد الوهاب) والتريكي (فتحي)، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق، ط.1، 2003م.
13. المسيري (عبد الوهاب)، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط.1، 2006م.
14. سبيلا (محمد) وبنعبد العالي (عبد السلام)، الحداثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء (المغرب)، ط.3، 2008م.

15. عبد الرحمن (طه)، بؤس الدهرانية – النقد الإئتماني لفصل الأخلاق عن الدين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط.2، 2014م.
16. عبد الرحمن (طه)، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.2، (د.ت).
17. عبد الرحمن (طه)، الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط.1، 2005م.
18. عبد الرحمن (طه)، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط.1، 2011م.
19. عبد الرحمن (طه)، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.1، 2000م.
20. عبد الرحمن (طه)، سؤال العمل: بحث في الأصول العملية في الفكر والعلم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب، ط.1، 2012م.
21. كرد علي (محمد)، أمراء البيان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط.1، 2012م.

8. الهوامش:(*)

[1]. انظر؛ أعمال المنتدى الفكري السادس عن منظمة التجديد الطلابي. دراسات في أعمال الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن، 2012م. وانظر أيضا؛ فعاليات المؤتمر الدولي الثاني بمراكش. تجديد المصطلحات وبناء المفاهيم في الفكر الاسلامي المعاصر احتفاء بجهود المفكر المغربي طه عبد الرحمن، 2015م. وانظر أيضا؛ المؤتمر الدولي

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

الثالث: تحت عنوان: "إشكالية العلاقة بين الحوار والأخلاق في الفكر المعاصر: مشروع طه عبد الرحمن أنموذجا، 2016م.

[2] - انظر؛ عبد الرحمن (طه)، الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط.1، 2005م. ص ص.145-146.

[3] - انظر؛ عبد الرحمن (طه)، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط.1، 2011م. ص ص.48-49.

[4] - انظر؛ المصدر نفسه، ص.19.

[5]- انظر؛ ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، 1981م). انظر؛ مادة: "حدث".

[6] - المسيري (عبد الوهاب) والتريكي (فتحي)، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق، ط.1، 2003م. ص.349.

[7] - انظر؛ المسيري (عبد الوهاب)، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط.1، 2006م. ص.34.

[8] - انظر؛ سبيلا (محمد) وبنعبد العالي (عبد السلام)، الحداثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء (المغرب)، ط.3، 2008م. ص.5.

[9] - انظر؛ آلان تورين، نقد الحداثة، تر. أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (د.ط)، 1997م. ص.30.

[10] - انظر؛ الكاظمي (ماجد)، الرؤية الفلسفية نقد وتحليل. دراسة استدلالية معمقة في نقد الفكر الفلسفي، باقيات للطباعة والنشر، قم - أيران، (د.ط)، 1958م. ص.18.

[11] . انظر؛ عبد الرحمن (طه)، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.1، 2000م. ص.14.

[12] - انظر؛ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[13] - انظر؛ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[14] - انظر؛ عبد الرحمن (طه)، بؤس الدهرانية – النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط.2، 2014م. ص ص.11-12.

[15] - انظر؛ عبد الرحمن (طه)، سؤال العمل: بحث في الأصول العملية في الفكر والعلم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب، ط.1، 2012م. ص.42.

[16] - روى الترمذي في سننه من طريق أنس بن مالك قال: "قال رجل: يا رسول الله، أعقلها ـ أي ناقته-وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: "اعقلها وتوكل". [الترمذي (محمد بن عيسى)، سنن الترمذي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط.1، (د.ت). رقم الحديث: (2517)، ص.567].

[17] . انظر؛ الجاحظ (أبو عثمان بحر بن عمرو)، رسائل الجاحظ، شرح وتقديم وتعليق عبد أ. مهنّا، دار الحداثة، بيروت، ط.1، 1988م. ج1، ص ص.101-102.

[18] . الخطم هو الاحتياط والاحتراز. انظر؛ لسان العرب، مادة: "خطم".

[19] . الربث هو الحبس والصرف. انظر؛ لسان العرب، مادة: "ربث".

[20] . المصدر نفسه، مادة: "عقل".

[21] . الجاحظ (أبو عثمان بحر بن عمرو)، رسائل الجاحظ، شرح وتقديم وتعليق عبد أ. مهنّا، ج1، ص.104.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

[22] . انظر؛ الجاحظ (أبو عثمان بحر بن عمرو)، رسائل الجاحظ، الرسائل الكلامية، تقديم وتبويب وشرح الدكتور علي أبي ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط.1، 1987م. ص.179.

[23] . الجاحظ (أبو عثمان بحر بن عمرو)، ذم العلوم ومدحها، ذكره؛ كرد علي (محمد)، أمراء البيان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط.1، 2012م. ج2، ص.340.

[24] . انظر؛ الجاحظ (أبو عثمان بحر بن عمرو)، رسائل الجاحظ، شرح وتقديم وتعليق عبد أ. مهنّا، ج1، ص.103.

[25] . سورة الملك، الآية: 10.

[26] . الزمخشري (محمود بن عمر)، تفسير الكشاف، تحقيق محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، ط.1977،2م. ج.5، ص.136.

[27] . ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط.1، 1996م. ص.134.

[28] . عبد الرحمن (طه)، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، ص.14.

[29] . المصدر نفسه، ص.13.

[30] . وأشار إلى موقف الواقعية واللاأدرية والوجدانية والحدسية والطبيعانية والإطلاقية والنسبية.

[31] . انظر؛ عبد الرحمن (طه)، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، ص.16.

[32] . انظر؛ الجابري (محمد عابد)، نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي بيروت، ط.6، 1993م. ص.52.

[33] . انظر؛ عبد الرحمن (طه)، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط.1، 2011م. ص.126.

[34] . انظر؛ عبد الرحمن (طه)، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.2، (د.ت). ص.29-41.

[35] . انظر؛ الحري (عبد النبي). طه عبد الرحمن ومحمد عابد الجابري: صراع المشروعين على أرض الحكمة الرشدية، منشورات الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط.1، 2014م. ص.178.